

سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الصف مدنية في قول الجميع، فيما ذكر الماوردي. وقيل: إنها مكية، ذكره النحاس عن ابن عباس. وهي أربع عشرة آية.

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

تقدم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ روى الدارمي أبو محمد في مسنده: أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناها؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) حتى ختمها. قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها. قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام. قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة، وقرأها علينا يحيى، وقرأها علينا الأوزاعي وقرأها علينا محمد (١). وقال ابن عباس: قال عبد الله بن راحة: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناها؛ فلما نزل الجهاد كرهوه (٢). وقال الكلبي: قال المؤمنون: يا رسول الله، لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليها؛ فنزلت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] فمكثوا زمانا يقولون: لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين؛ فدلهم الله تعالى عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١] الآية، فابتلوا يوم أحد ففروا؛ فنزلت تعيرهم بترك الوفاء (٣). وقال محمد بن كعب: لما أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بثواب شهداء بدر قالت الصحابة: اللهم اشهد، لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا؛ ففروا يوم أحد فغيرهم الله بذلك (٤)، وقال قتادة والضحاك: نزلت في قوم كانوا يقولون:

(١) صحيح: الترمذي (٣٣٠٩)، والدارمي (٢٣٩٠) في سننه وصححه الألباني.

(٢) منقطع: الطبري (٢٧٠ / ٨٧) في التفسير، طريق علي بن أبي طلحة، ولكن دون ذكر عبد الله بن راحة - رضي الله عنه - وإنما ذكره مجاهد - رحمه الله - كما سيأتي.

(٣) مرسل: والكلبي ضعيف إذا أسند، فكيف إذا أرسل؟، وحديثه معضل وانظر القادم.

(٤) مرسل: البغوي (١٠٤ / ٨) في تفسيره.

نحن جاهدنا وأبلىنا ولم يفعلوا^(١)، وقال صهيب: كان رجل قد أذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم فقتلته، فقال رجل: يا نبي الله، إني قتل فلانا، ففرح النبي ﷺ بذلك، فقال عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف: يا صهيب، أما أخبرت رسول الله ﷺ أنك قتل فلانا! فإن فلانا انتحل قتله؛ فأخبره فقال: «أكذلك يا أبا يحيى؟» قال: نعم، والله يا رسول الله؛ فنزلت الآية في المتحل^(٢)، وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين؛ كانوا يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا؛ فلما خرجوا نكصوا عنهم وتحلفوا^(٣).

الثانية: هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملا فيه طاعة أن يفي بها، وفي صحيح مسلم عن أبي موسى أنه بعث إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن؛ فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتسوق قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة بـ «براءة» فأنسيتها؛ غير أنني قد حفظت منها: «لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»، وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيتها؛ غير أنني حفظت منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة^(٤)، قال ابن العربي^(٥): وهذا كله ثابت في الدين؛ أما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فثابت في الدين لفظا ومعنى في هذه السورة، وأما قوله: «شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة»، فمعنى ثابت في الدين؛ فإن من التزم شيئا لزمه شرعا، والملتزم على قسمين: أحدهما: النذر، وهو على قسمين، نذر تقرب مبتدأ كقوله: لله علي صلاة وصوم وصدقة، ونحوه من القرب، فهذا يلزم الوفاء به إجماعا، ونذر مباح وهو ما علق بشرط رغبة، كقوله: إن قدم غائبي فعلي صدقة، أو علق بشرط رهبة، كقوله: إن كفاني الله شر كذا فعلي صدقة، فاختلف العلماء فيه، فقال مالك وأبو حنيفة: يلزمه الوفاء به، وقال الشافعي في أحد أقواله: إنه لا يلزمه الوفاء به، وعموم الآية حجة لنا؛ لأنها بمطلقها تتناول ذم من قال ما لا يفعله على أي وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط، وقد قال أصحابه: إن النذر إنما يكون بما القصد منه القربة مما هو من جنس القربة، وهذا وإن كان من جنس القربة لكنه لم يقصد به القربة، وإنما قصد منع نفسه عن فعل أو الإقدام على فعل، قلنا: القرب الشرعية مشقات وكلف وإن كانت قربات، وهذا تكلف التزام هذه القربة بمشقة جلب نفع أو دفع ضرر، فلم يخرج عن سنن التكليف ولا زال عن قصد التقرب، قال ابن العربي^(٦): فإن كان المقول منه وعدا، فلا يخلو أن يكون منوطا بسبب كقوله: إن تزوجت أعتكك بدينار، أو ابتعت حاجة كذا أعطيتك كذا، فهذا لازم

(١) مرسل: وهو صحيح إلى قتادة، وفيه انقطاع إلى الضحاك: البغوي (٨ / ١٠٤)، والطبري (٢٨ / ٨٨) في تفسيره.

(٢) ضعيف: انظر: تخريج أحاديث الكشاف (٤ / ٥٢٢) للحافظ وعزاه للثعلبي.

(٣) مرسل: الطبري (٢٨ / ٨٩)، والبغوي (٨ / ١٠٤).

(٤) صحيح: مسلم (١٠٥٠ / ١١٩) في الزكاة.

(٥) (٦، ٥) أحكام القرآن (٤ / ١٧٩٩ - ١٨٠٠) للقاضي ابن العربي المالكي.

إجماعاً من الفقهاء، وإن كان وعداً مجبرداً فقيل: يلزم بتعلقه، وتعلقوا بسبب الآية، فإنه روي أنهم كانوا يقولون: لو تعلم أي الأعمال أفضل أو أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهو حديث لا بأس به، وقد روي عن مجاهد: أن عبد الله بن رباح لما سمعها قال: لا أزال حيسباً في سبيل الله حتى أقتل^(١)، والصحيح عندي: أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذر.

قلت: قال مالك: فأما العدة مثل أن يسأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له: نعم؛ ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى ذلك يلزمه، وقال ابن القاسم: إذا وعد الغرماء، فقال: أشهدكم أنني قد وهبت له من أن يؤدي إليكم؛ فإن هذا يلزمه، وأما أن يقول: نعم، أنا أفعل؛ ثم يبدو له، فلا أرى عليه ذلك.

قلت: أي لا يقضي عليه بذلك؛ فأما في مكارم الاخلاق وحسن المروءة فنعم؛ وقد أثنى الله تعالى على من صدق وعده ووفى بنذره فقال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] وقد تقدم بيانه.

الثالثة: قال النخعي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث مالك بن دينار عن ثمامة؛ أن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت وفيت^(٢) قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون، ويقروون كتاب الله ولا يعملون^(٣)، وعن بعض السلف أنه قيل له: حدثنا؛ فسكت، ثم قيل له: حدثنا، فقال: أتروني أن أقول ما لا أفعل، فأستعجل مقت الله!».

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله، أما في الماضي فيكون كذبا، وأما في المستقبل فيكون خلفا، وكلاهما مذموم، وتأول سفيان بن عيينة قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: لم تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم، فلا تدرؤن هل تفعلون أو لا تفعلون، فعلى هذا يكون الكلام محمولا على ظاهره في إنكار القول.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قد يحتج به في وجوب الوفاء في اللجاج والغضب على أحد قولي الشافعي، و«أن» رفع بالابتداء وما قبلها الخبر؛ وكأنه قال: قولكم ما لا تفعلون مذموم، ويجوز أن يكون خير ابتداء محذوف. الكسائي: «أن» في موضع رفع؛ لأن «كَبُرَ» فعل بمنزلة بش رجلا أخوك، و«مَقْتًا» نصب بالتمييز؛ المعنى: كبر قولهم ما لا يفعلون مقْتًا، وقيل: هو حال، والمقت والمقاتة مصدران؛ يقال: رجل مقيت وممقوت؛ إذا لم يحبه الناس.

(١) عزاه السيوطي (٦/ ٣١٦) لابن المنذر وعبد بن حميد، وابن عساکر.

(٢) وفيت: تمت وطالت. النهاية (٥/ ٢١١).

(٣) حسن: وقد سبق.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ①

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ أي : يصفون صفاً ، والمفعول مضمراً ؛ أي : يصفون أنفسهم صفاً ، ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنِيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ قال الفراء : مرصوص بالرصاص ، وقال المبرد : هو من رصصت البناء إذا لاءمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة ، وقيل : هو من الرصيص وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض ، والتراص التلاصق ؛ ومنه وتراصوا في الصف ، ومعنى الآية : يحب من يشبث في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كشبوت البناء ، وقال سعيد بن جبير : هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم (١) .

الثانية : وقد استدل بعض أهل التأويل بهذا على أن قتال الرجل أفضل من قتال الفارس ؛ لأن الفرسان لا يصفون على هذه الصفة . المهدي : وذلك غير مستقيم ؛ لما جاء في فضل الفارس في الأجر والغنيمة ، ولا يخرج الفرسان من معنى الآية ؛ لأن معناه الثبات .

الثالثة : لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان ، أو في رسالة يرسلها الإمام ، أو في منفعة تظهر في المقام ، كفرصة تنهز ولا خلاف فيها ، وفي الخروج عن الصف للمبارزة خلاف على قولين : أحدهما : أنه لا بأس بذلك إرهاباً للعدو ، وطلباً للشهادة وتحريضاً على القتال ، وقال أصحابنا : لا يبرز أحد طالبا لذلك ؛ لأن فيه رياء وخروجاً إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدو ، وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر ؛ كما كانت في حروب النبي ﷺ يوم بدر وفي غزوة خيبر ، وعليه درج السلف ، وقد مضى القول مستوفى في هذا في البقرة عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِرَبِّ تُوذُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ②

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ لما ذكر أمر الجهاد بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله ؛ وحل العقاب بمن خالفهما ؛ أي : واذكر لقومك يا محمد هذه القصة .
قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونِي ﴾ وذلك حين رموه بالأدرة (٢) ؛ حسب ما تقدم في آخر سورة الأحزاب (٣) ، ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون : إنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور (٤) ، ومن الأذى قولهم : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] ، وقولهم : ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾ [المائدة : ٢٤] ، وقولهم : إنك قتلت هارون ، وقد تقدم هذا ، ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ والرسول

(١) ذكره ابن كثير (٨ / ٨٦) في تفسيره ولم يعزه إلى أحد .

(٢) الأدرة : انتفاخ الخصلة لتسرب مائع بين طبقتي الغلاف الذي يحيط بهما . المعجم الوجيز ص ٩

(٣) عند الآية (٦٩) من سورة الأحزاب .

(٤) صحيح إلى ابن عباس : وقد سبق .

يحترم ويعظم، ودخلت ﴿قَدْ﴾ على ﴿تَعْلَمُونَ﴾ للتأكيد؛ كانه قال: وتعلمون علما يقينا لا شبهة لكم فيه، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي: مالوا عن الحق ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أمالها عن الهدى، وقيل: ﴿لَمَّا زَاغُوا﴾ عن الطاعة ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الهداية، وقيل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ عن الإيمان ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الثواب، وقيل: أي: لما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول عليه السلام وطاعة الرب، خلق الله الضلالة في قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: واذكر لهم هذه القصة أيضا، وقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولم يقل: «يا قوم» كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: بالإنجيل، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ لأن في التوراة صفتي، وأني لم آتكم بشيء يخالف التوراة فتنفروا عني، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾ مصدقا، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ نصب على الحال؛ والعامل فيها معنى الإرسال، و﴿إِلَيْكُمْ﴾ صلة الرسول، ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «من بعدي» بفتح الياء^(١)، وهي قراءة السلمي وزر بن حبيش وأبي بكر عن عاصم، واختاره أبو حاتم لأنه اسم؛ مثل الكاف من بعدك، والتاء من قمت، الباقون بالإسكان، وقرئ: «من بعد اسمه أحمد» بحذف الياء من اللفظ، و﴿أَحْمَدُ﴾ اسم نبينا ﷺ، وهو اسم منقول من صفة لا من فعل؛ فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل، فمعنى ﴿أَحْمَدُ﴾ أي: أحمد الحامدين لربه، والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدا، وأما محمد فممنقول من صفة أيضا، وهي في معنى محمود؛ ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة، كما أن المكرم من أكرم مرة بعد مرة، وكذلك المدح ونحو ذلك، فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه، فهذا علم من أعلام نبوته، إذ كان اسمه صادقا عليه؛ فهو محمود في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة، فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ، ثم إنه لم يكن محمدا حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه؛ فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى عليه السلام فقال: ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: «اللهم اجعلني من أمة أحمد»^(٢)، فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد؛ لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبعث كان محمدا بالفعل، وكذلك في الشفاعة، يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربه، ثم يشفع فيحمد على شفاعته، وروي أن النبي ﷺ قال: «اسمي في التوراة: أحميد؛ لأنني أحميد أمتي عن النار، واسمي في الزبور: الماحي، محال الله بي عبدة الأوثان، واسمي في

(١) قراءة متواترة: انظر: تقريب النشر (ص ١٨١).

(٢) ضعيف: وقد سبق.

الإنجيل: أحمد ، واسمي في القرآن: محمد ؛ لأنني محمود: في أهل السماء والأرض^(١) ، وفي الصحيح: «لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»^(٢) ، وقد تقدم، «فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ» قيل: عيسى، وقيل: محمد ﷺ، «فَالَوْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» قرأ الكسائي وحمزة: «ساحر»^(٣) نعتا للرجل، وروي أنها قراءة ابن مسعود، الباقون: «سِحْرٌ» نعتا لما جاء به الرسول.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ تقدم في غير موضع، ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ هذا تعجب ممن كفر بعيسى ومحمد بعد المعجزات التي ظهرت لهما، وقرأ طلحة بن مصرف: «وهو يدعى» بفتح الياء والدال وشدها وكسر العين، أي: يتسبب، ويدعى ويتسبب سواء، «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» أي: من كان في حكمه أنه يختم له بالضلالة.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الإطفاء هو الإخماد، يستعملان في النار، ويستعملان فيما يجري مجراها من الضياء والظهور، ويفترق الإطفاء والإخماد من وجه؛ وهو أن الإطفاء يستعمل في القليل والكثير، والإخماد إنما يستعمل في الكثير دون القليل؛ فيقال: أطفأت السراج؛ ولا يقال: أخمدت السراج، وفي ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ هنا خمسة أقاويل، أحدها: أنه القرآن؛ يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول؛ قاله ابن عباس وابن زيد^(٤) ، والثاني: إنه الإسلام؛ يريدون دفعه بالكلام؛ قاله السدي^(٥) ، الثالث: أنه محمد ﷺ؛ يريدون هلاكه بالأراخيف؛ قاله الضحاك^(٦) . الرابع: حجاج الله وإلأله؛ يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم؛ قاله ابن بحر^(٧) . الخامس: أنه مثل مضروب؛ أي: من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلًا ممتنعًا فكذلك من أراد إبطال الحق؛ حكاها ابن عيسى^(٨) ، وسبب نزول هذه الآية ما حكاها عطاء عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ أبطأ عليه الوحي أربعين يومًا؛ فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود، أبشروا ، فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتم أمره؛ فحزن رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل

(١) موضوع: ذكره الماوردي (٥/ ٥٢٩) بلا سند في النكت والعيون ، وذكره الذهبي (١/ ٣٣٦) في الميزان وفيه:

إسحاق بن بشر وهو الكاهلي: كذاب كما قال الدارقطني ويروى العظام ، عن ابن إسحاق ، وابن جريج .

(٢) متفق عليه: وقد تقدم

(٣) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٠٨) .

(٤) صحيح إليه: الطبري (٢٨/ ٩٢) ، والماوردي (٥/ ٥٣٠) في تفسيره .

(٥- ٨) الماوردي (٥/ ٥٣٠) .

الوحي بعدها ^(١)؛ حكى جميعه الماوردي رحمه الله، «وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ» أي: بإظهاره في الآفاق، وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم: «وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ» بالإضافة على نية الانفصال؛ كقوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» [آل عمران: ١٨٥] وشبهه، حسب ما تقدم بيانه في آل عمران، الباقون: «مُتِمُّ نُورِهِ» ^(٢)؛ لأنه فيما يستقبل؛ فعمل، «وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» من سائر الأصناف.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ» أي: محمداً بالحق والرشاد، «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» أي: بالحجج، ومن الظهور: الغلبة باليد في القتال؛ وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد يكون أهل الإسلام عاينين غالبين، ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان، قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام ^(٣)، وقال أبو هريرة: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» بخروج عيسى، وحيث لا يبقى كافر إلا أسلم، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً، فليكفرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتركن القلاص» ^(٤)، فلا يسمى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» ^(٥)، وقيل: «لِيُظْهِرَهُ» أي: ليطلع محمداً ﷺ على سائر الأديان؛ حتى يكون عالماً بها عارفاً بوجوه بطلانها، وبما حرفوا وغيروا منها، «عَلَى الدِّينِ» أي: الأديان؛ لأن الدين مصدر يعبر به عن جمع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٥٥﴾ تَوَمَّنْ يَا اللَّهُ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ» قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون؛ وذلك أنه قال لرسول الله ﷺ: لو أذنت لي فطلقت خولة، وترهبت واختصت وحرمت اللحم، ولا أنام بليل أبداً، ولا أفطر بنهار أبداً. فقال رسول الله ﷺ: «إن من سستي النكاح، ولا

(١) انظر السابق، وهو غريب بعض الشيء في منته في تفسيره.

(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٨١).

(٣) ضعيف إلى أبي هريرة: الطبري (٢٨ / ٩٢) في تفسيره، وانظره مرفوعاً في التالي.

(٤) القلاص: جمع (قلوص) وهي الناقة الفتية بمنزلة الجارية - الفتاة من النساء، والحديث من الرجال اللسان «قلص».

(٥) صحيح: مسلم (١٥٥ / ٢٤٣) في الإيمان.

رهبانية في الإسلام ، إنما رهبانية أمتي : الجهاد في سبيل الله ، وخصاء أمتي الصوم ، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ومن ستنى أنام وأقوم وأفطر وأصوم ، فمن رغب عن ستنى فليس مني»^(١) ، فقال عثمان : والله لوددت يا نبي الله أي : التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها ؛ فنزلت ، وقيل : ﴿أدلكم﴾ أي : سأدلكم^(٢) ، والتجارة الجهاد ؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة : ١١١] الآية ، وهذا خطاب لجميع المؤمنين ، وقيل : لأهل الكتاب .

الثانية : قوله تعالى : ﴿تُنَجِّكُمْ﴾ أي : تخلصكم ﴿مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي : مؤلم ، وقراءة العامة ﴿تُنَجِّكُمْ﴾ بإسكان النون من الإنجاء ، وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة : «تُنَجِّكُمْ» مشددا من التنجية ، ثم بين التجارة وهي المسألة .

الثالثة : فقال : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ ذكر الأموال أولا ؛ لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق ، ﴿ذَلِكَ﴾ أي : هذا الفعل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ خير لكم من أموالكم وأنفسكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، و﴿تُؤْمِنُونَ﴾ عند المبرد والزجاج في معنى آمنوا ، ولذلك جاء ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ﴾ مجزوما على أنه جواب الأمر ، وفي قراءة عبد الله : « آمنوا بالله » ، وقال الفراء : ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ﴾ جواب الاستفهام ؛ وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى ؛ وذلك أن يكون : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾ عطف بيان على قوله : ﴿هَلْ أَدَلَّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ كأن التجارة لم يدر ما هي ؛ فبيئت بالإيمان والجهاد ؛ فهي هما في المعنى ، فكأنه قال : هل تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم ، الزمخشري : وجه قول الفراء أن متعلق الدلالة هو التجارة والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد ، كأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ، قال المهدي : فإن لم تقدر هذا التقدير لم تصح المسألة ؛ لأن التقدير يصير إن دلتهم يغفر لكم ؛ والغفران إنما نعت بالقبول والإيمان لا بالدلالة ، قال الزجاج : ليس إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ؛ إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا ، وقرأ زيد بن علي : « تؤمنوا » ، و « تجاهدوا » و « وتجاهدون » على إضمار لام الأمر ؛ كقوله :

مُحَمَّدٌ تَقَدَّ نَفْسُكَ كُلُّ نَفْسٍ إِذَا مَا خَفْتَ مِنْ شَيْءٍ تَبَالَا

أراد لتفد ، وأدغم بعضهم فقال : ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ﴾ والأحسن ترك الإدغام ؛ لأن الراء حرف متكرر قوي ، فلا يحسن إدغامه في اللام ؛ لأن الأقوى لا يدغم في الأضعف .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿وَمَسَاكِينٍ طَيِّبَةٍ﴾ خرج أبو الحسين الأجرى عن الحسن قال : سألت عمران ابن الحصين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية ﴿وَمَسَاكِينٍ طَيِّبَةٍ﴾ فقالا : على الخير سقطت ، سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : « قصر من لؤلؤة في الجنة فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتا من زبرجدة خضراء ، في كل بيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين في كل بيت سبعون مائة ، على كل مائة سبعون لونا من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة ، فيعطي الله تبارك وتعالى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله »^(٣) ، ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي : إقامة ، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ

(١) معضلان : وهو في الصحيح بغير هذا الإسناد ، وبغير منته أيضا .

(٢) موضوع : وذكره ابن المبارك (١ / ٥٥) في الزهد ، والطبري (١٠ / ١٧٩) في تفسيره ، وفيه : (جسر بن فرقد =

العظيم ﴿ أي السعادة الدائمة الكبيرة، وأصل الفوز الظفر المطلوب،

الخاصة : قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ قال الفراء والاحفش: ﴿أُخْرَى﴾ معطوفة على ﴿تِجَارَةً﴾ فهي في مجل خفض، وقيل: محلها رفع أي: ولكم خصلة أخرى وتجارة أخرى تحبونها ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هو نصر من الله؛ ف ﴿نَصْرٌ﴾ على هذا تفسير ﴿وَأُخْرَى﴾، وقيل: رفع على البدل من ﴿أُخْرَى﴾ أي: ولكم نصر من الله، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: غنيمة في عاجل الدنيا؛ وقيل: فتح مكة، وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم (١)، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنِ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَبْدَأْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١١﴾﴾

أكد أمر الجهاد؛ أي: كونوا حواريي نبيكم ليظهركم الله على من خالفكم، كما أظهر حواريي عيسى على من خالفهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: ﴿أنصارا لله﴾ بالتثوين (٢)، قالوا: لأن معناه اثبتوا وكونوا أعوانا لله بالسيف على أعدائه وقرأ الباقر من أهل البصرة والكوفة والشام: ﴿أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ بلا تنوين؛ وحذفوا لام الإضافة من اسم الله تعالى، واختاره أبو عبيد لقوله: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ ولم ينون؛ ومعناه كونوا أنصارا لدين الله، ثم قيل: في الكلام إضمار؛ أي: قل لهم يا محمد كونوا أنصار الله، وقيل: هو ابتداء خطاب من الله؛ أي: كونوا أنصارا كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصارا وكانوا حواريين، والحواريون خواص الرسل، قال معمر: كان ذلك بحمد الله؛ أي: نصره وهم سبعون رجلا، وهم الذين بايعوه ليلة العقبة (٣)، وقيل: هم من قريش، وسماهم قتادة: أبا بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير وسعد بن مالك وأبا عبيدة - واسمه عامر - وعثمان بن مظعون وحزمة بن عبد المطلب؛ ولم يذكر سعيدا فيهم، وذكر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلا، وقد مضت أسماءهم في «آل عمران» (٤)، وهم أول من آمن به من بني إسرائيل، قاله ابن عباس، وقال مقاتل: قال الله لعيسى: إذا دخلت القرية فأت النهر الذي عليه القصارون (٥) فاسألهم النصر، فاتاهم عيسى

= وهو ضعيف جدا، كما أن إسحاق بن سليمان لم يسمع منه الطبري، وهناك خلاف في سماع الحسن من أبي هريرة، فكيف يُصرَّح بالسماع وهناك انقطاع بين التابعي ومن روى عنه: يعني بين إسحاق والحسن، ثم لفظه «السبطين» هذه التي ليس فوقها ولا تحتها من عدد هي لفظة القصاص دائما كان ربك لم يخلق فوق السبعين ولا تحتها كما قال ابن قتيبة - رحمه الله .

(١) ذكره البيهقي عن عطية كلف في تفسيره (٨ / ١١٠) .

(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٨١) .

(٣) مرسل: ذكره الطبري (٢٨ / ١٩٥) عن معمر، عن قتادة به، وذكره عبد الرزاق (٣١١٤) في تفسيره .

(٤) عند الآية (٥٢) من آل عمران ولم يذكر - رحمه الله الأسماء هناك .

(٥) القصارون: الصباغون، وقيل الغسالون اللسان «قصر» .

وقال: من أنصاري إلى الله؟ قالوا: نحن نصررك، فصدقوه ونصروه، ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من أنصاري مع الله، كما تقول: الذود إلى الذود إبل، أي: مع الذود، وقيل: أي: من أنصاري فيما يقرب إلى الله، ﴿قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ وقد مضى هذا في آل عمران ﴿فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ والطائفتان في زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء، على ما تقدم في آل عمران بيانه، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ للذين كفروا بعيسى، ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي: غالبين. قال ابن عباس: أيد الله الذين آمنوا في زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار (١)، وقال مجاهد: أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى، وقيل: أيدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضاليتين، من قال: كان الله فارفع، ومن قال: كان ابن الله فرفعه الله إليه؛ لأن عيسى ابن مريم لم يقاتل أحدا ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال، وقال زيد بن علي وقتادة ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ غالبين بالحجة والبرهان؛ لأنهم قالوا فيما روي: أستم تعلمون أن عيسى كان ينام والله لا ينام، وأن عيسى كان يأكل والله تعالى لا يأكل؟ (٢)، وقيل: نزلت هذه الآية في رسل عيسى عليه الصلاة والسلام: قال ابن إسحاق: وكان الذي بعثهم عيسى من الخواريين والأتباع: فطرس وبولس إلى رومية، وأندرايس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس، وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق، وفيلبس إلى قرطاجنة وهي إفريقية، ويحنس إلى دقوس قرية أهل الكهف، ويعقوبس إلى اورشليم وهي بيت المقدس، وابن تلميذ إلى العربية وهي أرض الحجاز، وسيمن إلى أرض البربر، ويهودا وبردس إلى الإسكندرية وما حولها، فأيدهم الله بالحجة، ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي: عالين؛ من قولك: ظهرت على الحائط، أي: علوت عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

(١) البغوي (٨/ ١١٠) في تفسيره .

(٢) لم أجد فيما بين يدي، والأسماء التي ذكرها ابن إسحاق أسماء إسرائيلية منقولة عن أهل الكتاب، والله أعلم.